الفصل الرابع
الحج دروس وعبر

أولاً : الانقياد والتسليم لله رب العالمين .

ثانياً : تربية الضمير .

ثالثاً : تربية الإرادة وتقوية للعزيمة .

رابعاً : المساواة .

خامساً : مراغمة الشيطان .

سادساً : إظهار توحيد الله جل وعلا .

سابعاً : وحدة الأمة .

ثامناً : عظة الموت والحشر .

تاسعاً : الكون كله ملب وطائف .

الفصل الرابع

الحج دروس وعبر

رحلة الحج رحلة مليئة بالعبر ، محفوفة بالدروس ، مكتظة بالعظات ، وهي في عبرها ودروسها وعظاتها تمس القلب ، وتناجي الوجدان ، وتخاطب العاطفة ، وتحرك العقل ، ولن يحظ الحاج بعظيم الأجر إلا إذا أدرك هذه العبر ، وتعلم هذه الدروس ، وتأمل هذه العظات .

ومن هذه الدروس والعبر :

أولاً : الانقياد والتسليم لله رب العالمين :

وهذا أول درس يتعلمه الحاج من حجه ، فهو في نسكه من إحرامه إلى تحلله لا بد أن ينقاد لأوامر الله جل وعلا ، وهذا التسليم يظهر في نزول العبد على أوامر الله نزول الجندي لأوامر قائده في ميدان المعركة ، إنه يسلم نفسه لأوامر الله جل وعلا كما يسلم الميت نفسه لمغسله على خشبة الغسل ، بل أشد .

لذا فإن المسلم ينقاد للنسك وهو يعلم أن في هذا الانقياد صحة الاتباع وعلامة القبول ، ولله در عمر رضي الله عنه يوم أن قال وهو يقبل الحجر : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك (١) .

(١) رواه البخاري في الحج رقم (١٥٩٧) عن عمر .

ولهذا جاء أن علياً رضي الله عنه عند الحجر الأسود كان يقول : اللهم إيماناً بك ـ لا بالحجر ـ وتصديقاً بكتابك ـ لا بالخرافة ـ ووفاء بعهدك ـ لا بعهد غيرك ـ واتباعاً لسنة نبيك ﷺ ـ لا سنة سواه .

إن المؤمن لن يكون مؤمناً حتى ينقاد لأوامر الله ، ويسلم لشرع الله ، وينزل على حكم الله ، وهذا شرط من شروط لا إله إلا الله ، وقد قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** ﴾ [النساء: ٦٥].

وجاء في سبب نزول هذه الآية : أن الزبير بن العوام رضي الله عنه خاصم رجلا من الأنصار ؛ قد شهد بدرا مع النبي ﷺ إلى رسول الله في شراج في الحرة ، كانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصاري : سرح الماء يمر . فأبى عليه الزبير . فقال رسول الله ﷺ : اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك . فغضب الأنصاري وقال : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ثم قال : اسق يازبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، واستوفى رسول الله للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار برأي أراد فيه السعة للزبير وللأنصاري فلما أحفظ الأنصاري رسول الله استوعى للزبير حقه في صريح الحكم فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك [١].

وفي رواية عند ابن أبي حاتم: اختصم رجلان إلى رسول الله

---

(١) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٥٨٥) ومسلم في الفضائل (٢٣٥٧) عن الزبير .

فقضى بينهما . فقال المقضى عليه : ردنا إلى عمر بن الخطاب . فقال رسول الله ﷺ : نعم انطلقا إليه فلما أتيا إليه فقال الرجل : يا ابن الخطاب قضى لي رسول الله على هذا ، فقال : ردنا إلى عمر بن الخطاب، فردنا إليك، فقال : أكذلك؟ قال: نعم . فقال عمر رضي الله عنه : مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما ، فخرج إليهما مشتملا على سيفه ، فضرب الذي قال : ردنا إلى عمر ، فقتله ، وأدبر الآخر فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قتل عمر والله صاحبي ، ولولا أني أعجزته لقتلني . فقال رسول الله ﷺ : ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** ﴾ فهدر دم ذلك الرجل وبرئ عمر من قتله »[1].

وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وسبب نزول هذه الآية كما أورده ابن كثير عن أنس رضي الله عنه قال : خطب النبي على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي : فنعم إذن . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فقالت : لاها الله ! إذن ما وجد رسول الله إلا جليبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال : والجارية في سترها تسمع . قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله بذلك . فقالت الجارية :

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١- ٥٢٢ .

أتريدون أن تردوا على رسول الله أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها . وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله فقال : إن كنت قد رضيته فقد رضيناه . قال : فإني قد رضيته . قال : فزوجها . ثم فزع أهل المدينة ، فركب جليبيب ، فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس رضي الله عنه فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة .

وروى ابن كثير في التفسير أيضا قال : قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ الآية . وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية – رضي الله عنها – فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ! فقال رسول الله : بلى فانكحيه . قالت : يا رسول الله . أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً** ﴾ .. الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله : نعم ! قالت : إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي ! (١) .

إن الانقياد والتسليم لشرع الله ليس من نافلة القول بل هو أصل العبادة ، وجوهر العبودية ، وهذا هو الفرق الجوهري بين المؤمن وغيره ، يقول الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله : إن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه ، خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله . ليس المؤمن « سائباً » يفعل ما تهوى نفسه

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – ج ٣– ٤٩٠ .

أو يهوى له غيره من الخلق . إنما هو « ملتزم » بعهد يجب أن يفي به ، وميثاق يجب أن يحترمه ، ومنهج يجب أن يتبعه . وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه .

مقتضى عقد الإيمان : أن يسلم زمام حياته إلى الله ، ليقودها رسوله الصادق ، ويهديه الوحي المعصوم .

مقتضى عقد الإيمان : أن يقول الرب : أمرت ونهيت . ويقول العبد : سمعت وأطعت .

مقتضى عقد الإيمان : أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه(١) .

هذا هو صنع المسلم في الحج : قال ربه : اترك أهلك . قال نعم .

قال له : غادر وطنك . قال : نعم .

قال له : اخلع ثوبك . قال : نعم .

قال له : طف بالبيت سبعا . قال : نعم .

قال له : اسع سبعاً . قال : نعم .

قال له : انحر هديك . قال : نعم .

قال له : احلق رأسك . قال : نعم .

وهذا هو قمة الخضوع والاستسلام لله رب العالمين .

ثانياً : تربية الضمير :

شعائر الإسلام تنشئ فيما تنشئ قلوباً حية ، وضمائر يقظة ، وأفئدة سليمة ، بل الإسلام كله أراد أن يكون المسلم كذلك ، مراقباً

(١) انظر : العبادة في الإسلام - د / يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة - ط الخامسة عشرة عام ١٩٨٥م / ٥٣ .

لله في السر والعلن ، في الظهور والخفاء ، في الجلوة والخلوة ، وحده وأمام الناس ، وإيمان العبد بالله عز وجل والتزامه بشعائره هو الذي يربي ذلك في نفسه ، لذا كان من كلام الله عز وجل قوله : ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٣، ١٤]، وقال : ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨]، وقال : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ [سبأ: ٣]، وقال : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨].

بهذه الآيات أراد الله عز وجل أن تصل قلوب أهل الإيمان إلى الحياة ، وضمائرهم إلى اليقظة ، التي يصل فيها العبد وكأنه يرى الله، أو على الأقل فليعلم بأن الله يراه ، وهذا هو معنى حديث جبريل في الإحسان : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١).

ولقد نشأت قلوب الصحابة وضمائرهم على هذا ولا أدل على ذلك من حديث ماعز والغامدية : عن بريدة رضي الله عنه قال: « إن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهرني ، فرده ، فلما كان من الغد أتاه ، فقال يا رسول الله : إني زنيت ، فرده الثانية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه ، فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا :

(١) رواه البخاري في الإيمان رقم (٥٠) ، و مسلم في الإيمان رقم (٩) عن أبي هريرة.

ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم »[١] .

وهذه هي قصة المرأة الغامدية التي ضربت مثلاً رائعاً في يقظة الضمير ، وقد غابت عنها أعين الناس ، لكنها أدركت أن عين الله لا تنام ، بل وجاءت إلى النبي ﷺ ويردها حتى تضع حملها ، ثم يردها حتى تفطم رضيعها ومع طول فترة الحمل والتي تبلغ تسعة أشهر ، وطول مدة الرضاعة والتي تبلغ عامين كاملين ، فهذه مدة تزيد عن العامين ونصف ، وتقترب من ثلاثة أعوام ، لكنها مع هذا كله تعلن توبتها ، وتريد طهرها وطهارتها ، وأعلنت ذلك كله على الملأ من الناس ، حتى استحقت أن يقول فيها رسول الله : لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له[٢] . وفي رواية لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم[٣] .

وهذا نص الحديث كما رواه الإمام مسلم بسنده عن عمران بن الحصين قال : جاءت الغامدية[٤] فقالت : يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني . وأنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ لعلك تردني كما رددت ماعزاً بالأمس ، إني لحبلى ، قال : أما لا ، فاذهبي حتى تلدي ، قال : فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة قالت :

---

(١) رواه مسلم في الحدود رقم (١٦٩٥) عن بريدة.
(٢) رواه مسلم رقم (١٦٩٦) عن عمران بن حصين.
(٣) رواه مسلم في الحدود رقم (١٦٩٥) عن بريدة.
(٤) الغامدية : نسبة إلى غامد وهي بطن من جهينة وهي تنسب إليها .

هذا قد ولدته ، قال : فاذهبي فأرضعيه ، حتى تطعميه . فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع بالصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله سبه إياها ، فقال : مهلاً يا خالد : فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت(١) .

ومن العجيب ما كان لعمر في أحد أسفاره يقول عبد الله بن دنيا : فانحدر بنا راع من الجبل ، فقال له عمر : يا راعي بعني شاة من هذه الغنم .

فقال : إني مملوك .

فقال عمر : قل لسيدك أكلها الذئب .

فقال الراعي : فأين الله ؟

فبكى عمر ثم غدا مع المملوك ، فاشتراه من صاحبه ، وأعتقه ، وقال : أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

وتأمل معي قصة عامر بن قيس يوم أن منّ الله على المؤمنين بفتح المدائن ، فجاء عامر بن قيس إلى صاحب الأقباض بحق فدفعه إليه فقال أصحابه : والله ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدل ما عندنا ولا يقاربه .

ثم قالوا له : أخذت منه شيئاً ؟

(١) رواه مسلم في الحدود رقم (١٦٩٥) عن بريدة .

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به .

فقالوا : من أنت ؟

فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن قيس .

وفي الحج تظهر تربية الضمير وقد أشار الله الحق سبحانه إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

أرأيت أخي الحبيب : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ** ﴾، وهب أن إنساناً وقع في شيء من ذلك ، فمن يراقبه ؟ ومن يحرسه؟ هل من شرطي يقف على رأسه ؟ أم هل من حارس يحوط به ؟ كلا إنها مراقبة داخلية ، مراقبة ذاتية ، إنها مراقبة الضمير .

ويظهر ذلك جلياً حين تتراءى المحظورات أمام عينيه ، فيكف عنها خوفاً من الله ، وطمعاً في رحمته ، ورجاء مغفرته ، وانتظار ثوابه .

وانظر إلى الحجيج وقد اختلط الرجال بالنساء في الطواف ، وقد تقترب الأبدان أو تلاصقت الأبدان ؛ ولكن يبقى الضمير الحي، والقلب اليقظ ، ليبعد عن الحاج وساوس الشيطان ، وحظوظ النفس الأمارة بالسوء .

ثالثاً : الحج تربية للإرادة وتقوية للعزيمة :

من أروع ما وصف به جند خالد بن الوليد رضي الله عنه : « أنهم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها » وهذه الكلمة تدل أول ما تدل على صلابة الإرادة وقوة العزيمة ، ولقد شاء الله سبحانه ، أن تكون رحلة الحج وسيلة بل من أعظم وسائل تربية الإرادة وقوة العزيمة لدى المسلم .

وكيف لا والحاج يغادر الوطن الذي ألفه ، والدار التي أحبها ، والقوم الذين عاشرهم ؟

وكيف لا وهو يغادر الوطن ، ويترك المال ، وينأى بعيداً عن الولد ؟

وكيف لا ورحلته لا تسلم من المخاطر ، حتى في قرننا الواحد والعشرين ؟ فقد تصدم السيارة ، أو تغرق الباخرة ، أو تسقط الطائرة، أو تحترق الخيام ، أو يختنق الحجيج في نفق ما ، أو يقع المُحرمون من شدة الزحام ، ومع هذا كله فإن الإرادة تقوى ، وإن العزيمة لتشتد .

ولقد شاء الله سبحانه أن يكون الحج إلى بلد ﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فهي وإن حدث ما حدث فيها من خدمات رائعة لا تنكر، لا تصلح أن تكون مشتى ولا أن تكون مصيفاً، والدليل على ذلك شوارعها التي شقت في الجبال شقاً ، ودورها التي نحتت في الجبال نحتاً ، فأنت في غدوك ورواحك لا تلبث أن ترى نفسك في طريقك صاعداً أو هابطاً .

ومن حكم الله كذلك أن يربط الحج بالأشهر القمرية ليكون طوراً في الشتاء ، وطوراً في الصيف ، وهكذا تربى الإرادة وتقوى العزيمة .

وإذا علم هذا أدركنا أن الإسلام ليس دين استسلام ولا دعة ، ولا خمول ولا راحة، بل هو دين جهاد ، ومن هنا كان الحج جهاد في سبيل الله ، بل هو من أفضل الجهاد ؛ وفي الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد ؟ فقال ﷺ : لكن أفضل الجهاد حج مبرور » (١).

رابعاً : المساواة :

لم تعالج فلسفة من الفلسفات قضية المساواة كما عالجها الإسلام ، ولم تكن هذه المعالجة معالجة مثالية نظرية ، لكنها كانت معالجة واقعية عملية ، ولقد عالج القرآن هذه القضية بكل صرامة وصراحة ، وقد أعلنت سورة الحجرات قانوناً من قوانين المساواة الراسخة ألا وهو : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣]. ولقد عوتب النبي ﷺ لمجرد أنه أهمل رجلاً أعمى ، وعمد إلى رجالات من عظماء قريش ، ولم يغن النبي ﷺ أن يكون ذلك لمصلحة الدعوة ، أو باسم الدين .

ولقد وعى النبي ﷺ هذا الدرس ومن يومها بدأ النبي ﷺ يمحو كل رابطة تقوى على رابطة الدين ، فرأيناه في مكة مؤاخياً بين عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة ، وبين عبد الله بن رواحة الخثعمي وبلال بن رباح الحبشي .

ويوم يشم النبي ﷺ من كلام أبي ذر تعالياً على أخيه بلال حين قال له : يا ابن السوداء ؛ هنا يغضب النبي ﷺ وتحمر عيناه ،

(١) سبق تخريجه.

وتنتفخ أوداجه ، ويرد أبا ذر إلى صوابه معنفاً إياه قائلاً له ﷺ : « أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية »[1].

ولا أعجب من اهتمامه ﷺ في غزوة من مغازيه بجليبيب وهو مولى فقير . فعن أبي برزة الأسلمي أن النبي ﷺ كان في مغزى له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا نعم، فلانا، وفلانا، وفلانا، ثم قال : هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا: قال: لكني أفقد جليبيباً ، فاطلبوه ، فطلب في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم، ثم قتلوه! فأتى النبي ﷺ، فوقف عليه فقال: قتل سبعة ثم قتلوه! هذا مني، وأنا منه، هذا مني وأنا منه، قالها مرتين أو ثلاثا، ثم قال بذراعيه هكذا فبسطهما، قال: فوضعه على ساعديه، ليس له سرير إلا ساعدي النبي ﷺ قال: فحفر له ووضع في قبره، ولم يذكر غسلا[2].

وفي الحج تظهر روعة المساواة ، حيث تساوت الرؤوس ، يوم أن حسرت الرؤوس ، وجردت الأبدان ، إلا من إزار ورداء ، ظهر عليهما البياض ، فتلفت يمنة ويسرة ، فلا تميز وزيراً ولا أميراً ، ولا ملكاً ولا رئيساً ، الكل سواء الوزير كالحقير ، والغني كالفقير ، وتنظر بأم عينيك في الطواف والسعي لترى أميراً بجوار حقير ، وغنياً بجوار فقير، وعالماً بجوار أمي جاهل ، وسيداً ملاصقاً لخادم عامل . من بكر في الطواف قبل الحجر ، ومن تأخر كان عليه تأخيره ، فليست هناك

(١) رواه ابن المبارك . وقال الألباني في غاية المرام صحيح رقم (٣٠٧) .
(٢) رواه مسلم في الفضائل رقم (٢٤٧٢) عن أبي برزة .

ساعة مخصوصة يطوف فيها علية القوم ، أو يوماً مخصوصاً يطوف فيه الملأ الأعلى من الناس ، أو مدة معينة يقف بها الأثرياء بعرفة .

كلا إنه يوم واحد يقف فيه الناس كلهم .

وساعة واحدة يفيض الناس فيها من عرفات .

ومشعر واحد يذكر الناس ربهم عنده .

وجمرات محدودة يرميها الناس .

ومكان واحد يرمي الناس حصاتهم فيه .

لقد تساوى الناس كلهم في زيهم وأعمالهم ، في طوافهم وسعيهم ، في حركاتهم وأقوالهم ، لم تفرقهم أجناسهم ، ولم تميزهم أعراقهم ، ولم تفضلهم أنسابهم ، ولم تقدمهم أحسابهم ، ولم يرفعهم سلطانهم ؛ ومن هنا فقد انتهز النبي ﷺ فرصة تجمع أصحابه في حجة الوداع فأعلنها صريحة مدوية ليسمع الحاضر ، ويبلغ الشاهد الغائب ، فقال ﷺ كما عند أحمد في مسنده : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى . أبلغت ؟ قالوا : بلغ رسول الله ﷺ » .

خامساً : مراغمة الشيطان :

منذ أن خلق الله الخلق – أعنى آدم عليه السلام، منذ هذه اللحظة وإبليس يتربص به كل التربص ، وأدار إبليس المعركة بصورة قتالية بكل مقاييس الحرب ، وبكل ما تعينه كلمة « حرب » قديماً وحديثاً من معان ، وهذه صورة قتالية تمثل المعركة من جنود لهم حزب وللحزب قائد ، وللقائد كل الولاء ، ولهم خطة ، وبالخطة هجوم وتسلل

واغتيال وأسر وشراك وعمليات انتحارية ، وهذه هي الصورة [١] بشيء من التفصيل بأدلتها الثابتة بالكتاب والسنة :

١ - **الجنود** : الشياطين هم جنود إبليس سواء كانوا من الجن أو من الإنس ﴿ **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ** ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

٢ - **الولاء** : وهو العلاقة بين إبليس وجنوده وهي علاقة ولاء وطاعة وهما أول الضرورات التنظيمية قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ** ﴾ [النساء: ٧٦].

٣ - **الحزب** : وعند ما يكون الولاء من جنود لقائد يتكون الحزب ﴿ **اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المجادلة: ١٩].

٤ - **السرايا** : وحين تتجمع الجنود ، ويتم الولاء ، ويكون الحزب ، يكون إرسال السرايا وفي الحديث قال ﷺ « إن لإبليس كرسياً فوق الماء يبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم مكانة أعظمهم فتنة » [٢].

٥ - **أدوات الحرب ومنها** :

أ - **الخيل** : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ** ﴾ [الإسراء: ٦٤].

---

(١) انظر : كتاب عندما ترعى الذئاب الغنم / أ / رفاعي سرور ص ١١-٢١ باختصار .

(٢) رواه مسلم في صفات المنافقين رقم (٢٨١٣) عن جابر .

ب - **السهام** : جاء في الحديث « النظرة سهم من سهام إبليس »[١] .

ج - **الراية** : وهي من تقاليد الحروب فلكل فئة راية تقاتل تحتها وفي مسند أحمد : « ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحبه الله عز وجل اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله أتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » وقال : « من غدا إلى صلاة الصبح غدا براية الإيمان ، ومن غدا إلى السوق غدا براية إبليس »[٢] .

٦ - **رفع الراية في موقع الاحتلال كما تكون في موقع الانتصار** : وفي الحديث قال ﷺ : « لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا أخر من يخرج منها ، فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته »[٣] فدل ذلك على أن السوق موضع احتلال للشيطان .

٧ - **العنف والشدة في هذه الحرب** : قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً** ﴾ [مريم : ٨٣] والأز الحركة العنيفة للماء عند الغليان .

---

(١) رواه الحاكم (٤ / ٣١٣) وقال صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي بقوله : إسحاق واه ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه ، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٠٦٥) .

(٢) رواه ابن ماجه في التجارات (٢٢٣٤) . وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه رقم (٤٨٣) .

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٤٥١) عن سلمان .

٨ - **الحصار حول الفريسة** : قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

٩ - **الشراك** : وهي الحيل والشباك التي يوقع فيها بنى آدم ومن أدعية الرسول ﷺ : « أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه »(١).

١٠ - **البحث عن أي ثغرة في أي مكان** ، حتى ولو كان ذلك في السماء لكنهم لا يجدون إلى ذلك سبيلاً قال تعالى :

﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً** ﴾ [الجن: ٨، ٩].

١١ - **الأسلوب الفدائي أو العمليات الانتحارية** : وهي عملية معروفة النتيجة دائماً وهو الموت ، ويصف النبي ﷺ هذه الحالة بالنسبة لهم قائلاً : « ومسترقو السمع هكذا واحد فوق الأخر - ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه »(٢).

١٢ - **الأسر** : كما في كل حرب ويكون من الطرفين وفى

---

(١) رواه أحمد (٥١، ٥٢) عن أبي بكر، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه أبو داود، وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (٤٢٣٥).

(٢) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٧٠١) عن أبي هريرة.

حديث النسائي وغيره : أن رسول الله ﷺ صلى صلاة مكتوبة ، فضم يده ، فلما صلى قالوا : يا رسول الله أحدث في الصلاة شئ ؟ فقال : لا إلا أن الشيطان أراد أن يمر بين يدي ، فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدي ..... » .

وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة عندما أتاه الشيطان وهو يحرس بيت المال يقول أبو هريرة : وكلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني فإني محتاج وعلى عيال ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه ، فأصبحت ، فقال رسول الله : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ ..... إلى أن قال ﷺ : أما إنه صدقك وهو كذوب ؛ تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا – قال : ذاك الشيطان(١) .

ومن ذلك أسرهم في شهر رمضان من قبل الله سبحانه وفي الحديث « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جنهم ، وسلسلت الشياطين »(٢) .

وكما يقع الأسر علي الشياطين ، يقع كذلك على الإنس ، وفي الحديث « قالت عائشة – رضي الله عنها – حدث رسول الله ﷺ نساء ذات ليلة حديثا ، فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة ، فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلا من

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن رقم (٥٠١٠) عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري في بدء الخلق رقم (٣٢٧٧) ومسلم في الصيام رقم (١٠٧٩) عن أبي هريرة .

عذرة [١] أسرته الجن في الجاهلية فمكث دهرا طويلا ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى من الأعاجيب ، فقال الناس: حديث خرافة »[٢].

١٣ – السحق الشامل : أي الإبادة الكاملة وفي الحديث القدسي قال تعالي : « إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم »[٣] وذلك أنه قال منذ البداية : ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٢] .

١٤ – الاغتيال: وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من الاغتيال فيقول: « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني و دنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وآمن روعاتي ؛ اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »[٤].

١٥ – الحصون: وفي هذه الحرب حصون يلجأ إليها الجنود من كلا الطرفين حماية لأنفسهم وفي الحديث « إن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات . . . وفيها وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك

---

(١) قبيلة من العرب .

(٢) رواه أحمد (٢٥٢٤٤) عن عائشة، وقال محققو المسند : إسناده ضعيف، ورواه الترمذي في الشمائل (٢٥٠) والبزار في الزوائد (٢٤٧٥)، وأبو يعلى (٤٤٤٢) ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع رقم (١٠٠) .

(٣) رواه مسلم في الجنة ونعيمها رقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار .

(٤) رواه أحمد (٤٧٨٥) عن ابن عمر ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، ورواه ابن ماجه (٣٨٧١) والنسائي في المجتبى (٨ / ٢٨٢) وأبو داود (٥٠٧٤) والحاكم (١ / ٥١٧)، وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (٤٢٣٩) .

كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن فأحرز نفسه منهم ... كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله »[١].

١٦- الجوار: وهو ما يعني الحماية أيضا من ضراوة تلك الحرب، قال أبو الدرداء : « ألم يكن فيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ؟ يعني عمار بن ياسر »[٢].

نتيجة المعركة :

بعد تحديد الصورة القتالية للحرب بيننا وبين الشيطان يحسن أن نري النتيجة النهائية لتلك الحرب ، لنري خسائر البشر فيها من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، أي نسبة ١ : ٩٩٩ ؛ ودليل ذلك ما جاء في الحديث : « يقول الله لآدم يوم القيامة يا آدم : ابعث بعث النار . فيقول آدم : يا رب وما بعث النار ؟ قال: من كل ألف تسعمائة تسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة »[٣].

وإذا كانت هذه هي العلاقة وتلك هي النتيجة ، فإن الحج وخصوصاً يوم عرفة يوم لمراغمة الشيطان ، وكسر أنفه ، وإضاعة عمله، ولهذا قال ﷺ : « ما رؤي الشيطان يوماً فيه أصغر ، ولا أدحر،

---

(١) رواه الترمذي في الأمثال (٢٨٦٣) عن الحارث الأشعري، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب، وذكره الألباني في صحيح الترغيب رقم (٥٥٢).
(٢) رواه البخاري في بدء الخلق رقم (٣٢٨٧) عن أبي الدرداء.
(٣) رواه البخاري في الرقاق رقم (٦٥٣٠) ، ومسلم في الإيمان رقم (٢٢٢) عن أبي سعيد .

ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، لما يرى فيه من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[١].

وإن رمي الجمار هو رمي للهوى وانتصار على الشيطان ، وإعلان العبد عبوديته لربه ، وتنفيذاً لأوامر الله ، وهذه مراغمة للشيطان وانتصار عليه .

سادساً : إظهار توحيد الله جل وعلا :

توحيد الله سبحانه من أسمى عقائد الإسلام ، وما قامت السماوات والأرض إلا من أجل كلمة التوحيد ، وشعائر الإسلام كلها ما كانت إلا لترسخ التوحيد في نفوس الناس ، والمتأمل في شعيرة الحج يرى اهتمام النبي ﷺ البالغ لإظهار التوحيد والاهتمام به ، وانظر إليه في نيته وهو يقول : « اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[٢].

وانظر إليه في تلبيته وهو يقول : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك»[٣].

وانظر إليه ﷺ وهو يصلي ركعتي الطواف فيصليهما ويقرأ بسورتي الكافرون والإخلاص[٤].

قال ابن القيم في تعليل قراءة النبي ﷺ بالسورتين في ركعتي الطواف وغيرهما : لأنهما – سورتا الإخلاص والكافرون –كان يفتتح

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٩٤٤) عن عبيد الله بن كريز ، وذكره الألباني في ضعيف الترغيب رقم (٧٣٩) .

(٢) رواه ابن ماجه في الحج (٢٨٩٠) عن أنس. وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه رقم (٢٣٥٥) .

(٣) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٩١٥) ، ومسلم في الحج رقم (١١٨٤) عن ابن عمر .

(٤) رواه مسلم في الحج (١٢١٨) عن جابر .

بهما عمل النهار ويختمه بهما ، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد(١).

وانظر لما قدم مكة في فتح مكة أبى أن يدخل الكعبة وفيها آلهة القوم ، يقول ابن عباس ﷺ فأمر بها – الآلهة – فأخرجت ، قال : فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام ، فقال ﷺ : قاتلهم الله ! والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط(٢).

وفي حجة أبي بكر في العام التاسع أرسل ﷺ علياً ليؤذن في الناس : «ألا يطوف بالبيت مشرك ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو لمدته ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة»(٣).

وانظر إليه ﷺ وهو يعتلي الصفا متوجهاً إلى الكعبة قائلاً : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده (٤).

وانظر إليه وهو يقف بعرفه ليعلن في يوم من خير أيام الدنيا كما في مسند أحمد بأن « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ».

إن نبي التوحيد يعلن التوحيد في بلد التوحيد داخل بقعة

---

(١) زاد المعاد / ج١ / ص ٣٠٨ .
(٢) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٠١) عن ابن عباس.
(٣) رواه البخاري في الحج رقم (١٦٦٢) ومسلم في الحج رقم (١٣٤٧) عن أبي هريرة.
(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٢١٨) عن جابر .

التوحيد ، ومنها انتشر التوحيد في الأرض ، ولكن الأمة الآن تحاول العودة إلى الوراء . فالله الله في التوحيد يا أمة التوحيد .

سابعاً : وحدة الأمة :

لقد شاء الله سبحانه أن تكون هذه الأمة أمة واحدة ، لا أمماً متفرقة ، ودولة جامعة لا دويلات متمزقة ، وكياناً متماسكاً لا كيانات متناثرة ، والقرآن يؤكد ذلك قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال : ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

والكفر في مشارق الأرض ومغاربها منذ القدم يجمع نفسه لاستئصال شأفة الإيمان، والباطل في أي زمن يجمع قواه لإزالة الحق ، ولقد حذر الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان من تجمع الكفر وتفرقهم وجعل الله ذلك التفرق فتنة عظيمة وفساداً كبيراً ؛ قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣].

والواقع يؤكد تعاون اليهودية العالمية ، والصليبية الغربية، والشيوعية الدولية ، والوثنية الشرقية على قصعة الأمة الإسلامية .

ويأتي الحج ليظهر هذه الوحدة في كل عام ، إنها وحدة في كل شيء .

وحدة في الزي : فلكل إزار ورداء .

وحدة في الوجهة : فالوجهة مكة .

وحدة في القبلة : فالقبلة البيت الحرام .

وحدة في الرب : فالرب واحد أحد .

وحدة في القول : فالقول واحد : لبيك اللهم لبيك ....

وحدة في الطواف : فالكل يطوف حول الكعبة جاعلاً الكعبة على يساره مبتدئا بالحجر الأسود .

وحدة في السعي : فالكل يبدأ من الصفا ولا ينتهي إلا بالمروة .

وحدة في عرفة : فلا يقفون بغيره ، ولا يفيضون قبل المغرب .

وحدة في مزدلفة : فلا يبيتون بغيرها .

وانظر إلى هذا المشهد الرائع في عرفة ، وانظر يمنة أو يسرة ، هل ترى إلا ثياباً بيضاً قد علت الأبدان ، وارجع البصر كرتين فلن ترى إلا وفوداً أقبلت من مشارق الأرض ومغاربها ، والتقت في صحراء عرفة، في ثياب رثة ، لا تصلح لخيلاء ، ولا تنفع لكبر ، لا تعين على تعال، ولا تحمي من برد ، ولا تقي من حر ، إنها ثياب لا موضع فيها لزينة، ولا صلاح فيها لكبرياء ، قد علا أصحابها الشعث ، وغبر مرتديها التراب ، حتى أمسوا شعثاً غبراً .

وأعد البصر كرتين لترى ببصرك وتلحظ ببصيرتك أصواتاً علت، ونداءات ارتفعت ، تعالت الصيحات بالدعاء ، وانشقت الحناجر بالهتاف ، لكنه هتاف لا لبشر ولا لحجر ، لا لزعيم ولا لأمير ، لا لملك ولا لسلطان ، إنما الهتاف فيها للواحد القهار .

نشيدهم العذب : لبيك اللهم لبيك .....

وحلو كلامهم : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

وجميل منطقهم : ربنا هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وعذب حديثهم : لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين .

وعالي صوتهم : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً .

وزفير أنفاسهم : رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم .

وحشرجة صدورهم : اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة .

ونبضات قلوبهم : اللهم إنا نسالك العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

وتقلب أبصارهم : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار .

إنها أمواج متلاطمة من البشر ، ألوف مؤلفة ، لا بل ملايين مملينة ، اختلفت ألوانهم وتناءت ديارهم ، واختلفت ألسنتهم ، وتعددت لغاتهم ، عرب وعجم ، هنود وزنوج، سود وبيض ، حمر وصفر ، رجال ونساء ، صغار وكبار، ولكن جمعهم شيء واحد هو وحدة الغاية ووحدة المقصد ، فالغاية الله ، والمقصد الله .

نعم لقد أكد النبي ﷺ على وحدة أمته وحذر من الفرقة ولقد بدا ذلك واضحاً في حجة الوداع ، وكانت أقواله ﷺ محرضة على ذلك لذا قال ﷺ : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم »[1] .

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢) عن جابر .

وعند أحمد في المسند : « يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد »(١) .

ثامناً : عظة الموت والحشر :

ومن أعظم عظات الحج عظة الموت والحشر ، وكيف لا والحالة شبيهة بالأخرى .

في الحج : تجرد من ثياب ، وفي الموت : تجرد من ثياب .

في الحج : أثواب معدودة ، وفي الموت : أثواب معدودة .

في الحج : ثياب بيضاء ، وفي الموت : أكفان بيضاء .

في الحج : سفر طويل ، وفي الموت : سفر أطول .

في الحج : شدة وتعب ، وفي الموت : شدة لا توصف وتعب لا يقدر .

في الحج : مفارقة للأوطان ، وفي الموت : مفارقة للدنيا .

في الحج : مفارقة للأهل والأولاد ، وفي الموت : مفارقة للخلائق .

في الحج : إقبال على الله ، وفي الموت : عود إلى الله .

أبعد هذا كله لا ترى **أخي الحبيب** تذكرة بليغة بالموت ، ذاك الذي غفل عنه الناس ، على الرغم من أنه أقرب إلى كل مخلوق من شراك نعله ، فهل أخذنا من الحج وصورته عظة للموت وعبرة له ، ولله در القائل :

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح ، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٦٤) .

أيا من يدع الفهم
إلى كم يا أخي الوهم
تعب الذنب والذنب
وتخطي الخطأ الجم
أما بان لك العيب ؟
أما أنذرك الشيب ؟
وما في نصحه ريب
أما أسمعك الصوت ؟
أما نادى بك الموت ؟
أما تخشى من الفوت ؟
فتحطاط وتهتم
فكم تسير في اللهو
وتختال من الزهو
كأني بك تنحط
إلى اللحد وتنغط
وقد أسلمك الرهط
إلى أضيق من سم
هناك الجسم ممدود
ليستأكله الدود
إلى أن ينحر العود
فيمسي العظم قد رم

فـزود نفـسك الخـيـر
ودع مـا يعـقب الضيـر
وهيـأ مـركب السـيـر
وخف من لجـــة اليـم
بذا أوصـــيك يا صـاح
وقـد بحـتك من بـاح
فطوبى لفـــتـــى راح
بآداب مـحـمـد يأتـم

وكما أن الحج يذكر بالموت فهو يذكر بيوم الحشر الأعظم .

ففي الحج : تجرد الناس من الثياب إلا القليل ، وفي الحشر : تجرد الناس من جميع ثيابهم .

في الحج : تجمع الناس من كل حدب وصوب ، وفي الحشر : تجمع الأولون والآخرون .

في الحج : الوجهة والمقصد للواحد الديان ، وفي الحشر : القدوم على الواحد القهار .

في الحج : أمواج متلاطمة من البشر ، وفي الحشر : أمواج متلاطمة كأنها جراد منتشر .

فاذكر ذلك أخي الحبيب ، وتذكر شدة الموقف ، وهول المحشر ، واستعد له قبل مجيئه ، ولله در القائل :

مـثل لقلـبك أيهـا المغـــرور يوم القـيـامـة والسـمـاء تمـور
قد كورت شمس النهار وأضعفت[1] حتـى على رؤوس العبـاد تفـور

(١) أي ازدادت ضعفا .

وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور؟
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ... لهفا على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت ... لفتى على طول البلاء صبور[1]

وأخيراً أخي الحبيب : فأنت على سفر ، سفر طويل ، فاغتنم الفرصة قبل الندم ، ورحم الله أبا الدرداء حين قال لأصحابه يوماً : أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعد له بزاد ؟

قالوا : بلى . قال : فسفر الآخرة أبعد مما تسفرون .

قالوا : دلنا على زاده . فقال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا يوماً شديداً حره لطول يوم النشور .

وهذا ما عناه الشاعر بقوله :

قدم لنفسك خيراً ... وأنت مالك مالك
قبل أن تصبح فرداً ... ولون حالك حالك
ولست والله تدري ... أي المسالك سالك

(١) بستان الواعظين -ابن الجوزي - ج ١ دار الكتاب العربي - ص ٦٤ .

إما لجنــة عدن أو في المهالك هالك

تاسعاً : الكون كله ملب وطائف :

إن المؤمن يدرك جيداً أن القرآن هو كتاب الله المسطور ، كما أنه كتابه المقروء، ولا يغفل المؤمن كذلك عن كتاب الله المنظور وهو الكون ، وكلا الكتابين لا تعارض بينهما ، فكلاهما من الله تعالى .

وكما أن الكون كتاب الله فهو كذلك خلق من خلق الله ، أبدع الله فيه وأجمل ، وتجلت فيه القدرة خلقاً وإبداعاً وزينة وجمالاً.

وإذا كان الكون خلق من خلق الله فلا بد وأن يكون عابداً لربه، مقراً له بربوبيته ، شاهداً له بوحدانيته وألوهيته ، خاشعاً لعظمته ، ساجداً لجلاله وحكمته .

إنه مخلوق ساجد : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الحج: : ١٨] .

ومخلوق مسبح : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]

و رافض للشرك : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٢].

وشعيرة الحج تظهر لنا عبادة الكون كله مع المسلم ، وتبدأ

عبودية الكون بهذه الشعيرة منذ أن أمر الله الخليل إبراهيم عليه السلام بالأذان في الناس بالحج : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج: ٢٧]

قال القرطبي : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء الكعبة وقيل له : أذن في الناس بالحج . قال : يارب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي الإبلاغ . فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك . فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة؛ إن أجاب مرة فمرة ، وإن أجاب مرتين فمرتين . وجرت التلبية على ذلك ، قاله ابن عباس وابن جبير .

وروي عن أبي الطفيل قال : قال لي ابن عباس : أتدري ما كان أصل التلبية ؟ قلت : لا ، قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج خفضت الجبال رءوسها ورفعت له القرى ؛ فنادى في الناس بالحج فأجابه كل شيء لبيك اللهم لبيك[١] .

وحين يلبي المسلم فإنه ليس وحده الملبي بل الكون كله من حوله يلبي مثلما لبى المسلم الموحد ، وفي الحديث قال ﷺ : « ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من شجر وحجر ؛ حتى تنقطع الأرض هنا وهنا يعني عن يمينه وشماله »[٢] .

---

(١) أحكام القرآن - القرطبي - ج ١٢ - ٣٨ .

(٢) رواه ابن ماجه في المناسك (٢٩٢١) عن ابن عباس، والطبراني في الكبير (٦ / ١٣٠) وفي الأوسط (١ / ٨٧) وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٨٠).

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام حج البيت على جمل أحمر عليه عباءة قطوانية وهو يلبي وتجاوبه جبال الروحاء .

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : أذن يعني إبراهيم عليه السلام فأجابه كل رطب ويابس وجبل ، وأهل الأرض وأهل السماء : لبيك اللهم لبيك .

وفي طواف المسلم حول الكعبة فليس وحده أيضاً من يطوف ، إنه يتعبد لله عز وجل بعبادة سبقه فيها خلق كثير من خلق الله ، ولئن كان المسلم يتوجه إلى الكعبة في كل يوم خمس مرات منجذباً إليها قلبه ، فإنه في طوافه يأتي وقد هوى فؤاده إلى بيت الله كما دعا الخليل عليه السلام .

وهنا يظهر الكون كله عبادة الطواف ، فهو وإن طاف بالبيت الحرام ، فقد طافت الملائكة بالبيت المعمور ، كما تعلمت الخلائق كلها هذه السنة . يقول الدكتور الغمراوي رحمه الله : أول ما يلقى الناظر من تلك النظائر يلقاه في المجموعة الشمسية ، فالأقمار فيها تدور - أو تطوف - حول كواكبها ، فالقمر يدور حول الأرض ، وأقمار المشترى تدور حول المشترى ، والأرض وأخواتها من السيارات تدور وأقمارها حول الشمس دوراناً متصلاً ، يختلف حقاً باختلاف كتلة السيار وبعده عن الشمس ، لكن مهما يكن الاختلاف في الكيف والمدار فالدوران أو الطواف حول الشمس واقع مع كل سيار .

وقد بين علم الفلك الحديث مبلغ انتشار ظاهرة الطواف هذه بين الكواكب فرادى وجماعات وعوالم ، فكم من كوكب يطوف

حول كوكب ، توائم وغير توائم وعالم المجرة الذي منه مجموعتنا الشمسية يدور .

وإذا ما تركنا العالم الفلكي جانباً ونزلنا إلى العالم الذري ، وجدنا الأمر أعجب وأغرب .

والعلماء يشبهون الذرة بالمجموعة الشمسية ، فهي جلها فراغ تتوسطه نقطة يتمركز فيها ثقل الذرة تسمى نواة الذرة ، ويدور حولها في ذلك الفراغ العظيم بالنسبة لها عدد من الكهيربات أخف كثيراً من النواة ، كل كهيرب وحدة من الكهربية السالبة الخاصة، ولكنها في مجموعها تكافئ بالضبط ما تحمل النواة من كهربية موجبة ، أي أن كل نواة في ذرة عنصر تحمل من الوحدات الكهربية الموجبة قدر عدد الكهيربات التي حولها .

والآن ما رأيك في انتشار ظاهرة الطواف هكذا في الفطرة من الذرة إلى المجرة وما فوقها ؟

تذكر أن كل ذرة من مادة في الكون فيها طائف ومطوف به ، وأن ذلك كله في باطن الذرة تقوم عليه بنيتها وذاتيتها ، ولا سلطان لمخلوق عليه كما لا سلطان لمخلوق على دوران الأقمار حول كواكبها ، ولا السيارات حول شموسها في الكون العظيم الشاسع.

ثم تذكر أن في كل حالة من تلك الحالات في العوالم الذرية والفلكية المطوف به دائماً واحد ، والطائف كثيراً ما يتعدد ، ففي كل ذرة نواة واحدة تطوف بها الكهيربات ؛ قلت أو كثرت ، وفي كل مجموعة شمسية شمس واحدة تطوف بها سيارتها ؛ قلت أو كثرت كذلك .

والعالم المجري بملايين شموسه وكواكبه يدور أو يطوف حول شيء واحد في الكون كله بالألوف المؤلفة من عوالمه المجرية ، يبدو أنه يدور أو يطوف حول شيء واحد لا يدري ما هو ، وتوحد المطوف به في كل حالة مع تعدد الطائفين في الكثرة الغالبة من الأحوال يريك وجه الشبه واضحاً بين الطواف الذي هو من قوام الحج وبين ظاهرة الطواف التي فطر الله عليها الكون . ويفتح أو أرجو أن يفتح ، لك باباً واسعاً من التدبر وأفقاً شاسعاً من التفكير في حكمة الطواف ، ودلالة انفراد الإسلام به من بين الأديان[1] .

* * *

(١) انظر : الإسلام في عصر العلم / محمد أحمد الغمراوي / ط دار الإنسان / ط. الرابعة عام ١٩٩١ م / ص ٦٨ - ٧٠ بتصرف .